# قضية التطور في الأدب

بقلم
محمود الهاشمي

من المؤكد ان العالم يعيش على الكلمات التي لا يكفّ عن ترديدها حتى ينبري مفكر ، أو خبرة متكررة (خبرة تحطم الغباء) فيصنع ثغرة في حائط التماثل الصلب البليد .
( ارنست دمنيه )

تنتمي قضية التطور في الادب الى نظرية التطور الاجتماعي والثقافي التي سادت في أوروبا القرن التاسع عشر واوائل العشرين قبل ظهور ما يعرف باسم « الاتجاه البنائي الوظيفي » حيث تراجعت أمامه نظرية التطور في معظم الدراسات الاجتماعية والثقافية .

ورغم ان جذور فكرة التطور الاجتماعي قديمة لكنها لم تتحول الى نظرية علمية واضحة الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر معتمدة على « المماثلة البيولوجية » بتصورها للمجتمع كائنا عضويا حيا تدرس التغيرات الاجتماعية فيه كما تدرس التغيرات البيولوجية . وهي في ذلك شبيهة بما فعله ألفرد آدلر في ميدان علم النفس حيث استعار له قانونا من قوانين البيولوجيا ، هو قدرة الكائن الحي على رد التوازن الى وظائف أعضائه : اذا قصر عضو منها في أداء وظيفته تام عضو آخر بتعويض ذلك القصور . فخرج من ذلك بقانون عام يفسر على ضوئه الوان النشاط النفسي التي يقوم بها الانسان .

الا ان نظرية التطور الاجتماعي نفسها ، هي كما سنرى ، خلاف « المفهوم العامي للتطور » الذي يتردد في كتابات أدونيس وبعض الآخرين .

وكنت في بحثي « المغامرة الروائية ومصادرها » (١) قد اشرت الى هذا المفهوم العامي للتطور الذي لاحظت انه الصفة الاساسية في بعض الكتابات التي أرادت أن تتزيا بالتاريخ وان تجعل من الوقت معيارا للحكم .

ان شعارها هو : « التقويم بمقتضى التقويم » ، فلا حاجة الى الفكر والانفعال ، لا حاجة الى معاناة النقد، حسبها أن تنظر الى التقويم ( الروزنامة ) ، فمتى عرفت الوقت ، عرفت القيمة .

لان المفهوم العامي للتطور ينظر الى التطور على انه عملية مستمرة ، وان التاريخ الثقافي مجموعة مراحل ، كل مرحلة هي بالضرورة ارقى من سابقتها .

على حين ان العلماء التطوريين يسقطون من حسابهم تماما فكرة «حتمية التقدم» ، ويؤكدون ـ حتى الاوائل منهم ـ على ان مرحلة متقدمة قد تعقبها مرحلة متدهورة ، والعكس . فلا يمكن للتعاقب الزمني أن يكون دليلا على التقدم الاجتماعي والثقافي . وكثيرا ما تجيء الظواهر المتقدمة في الزمان متاخرة في التطور . ولقد أدرك ذلك الدكتور محمود فهمي زيدان في بحثه عن الاستقراء حيث كتب : « لقد جاء مل بعد هيوم بقرن من الزمن أو يزيد ولكننا نرى ان هيوم اتخذ موقفا يتضمن خطوة جديدة نحو فهم الاستقراء ، ثم أتى مل وبالرغم من اعلانه انه تأثر بهيوم في موقفه الاستقرائي لم ينتفع بتلك الخطوة بل ارتد الى الوراء وزاد موقف فرنسيس بيكون شرحا وأتمّ ما بداه . وبذا نعتبر موقف هيوم في الاستقراء أكثر تطورا من موقف مل منه . والشواهد كثيرة على ان تطور الافكار لا يسير دائما الى جنب مع زحف التاريخ » (٢) .

وما سبق أن لاحظته في تقويم بعض الاعمال الادبية هو ان بعضهم يحكمون على جودة العمل الادبي تبعا للمذهب حسب زمان ظهوره ، وقلت في ذلك : « واذا كان المنظور في التقدم مستمدا من التعاقب الزمني ، ومن المفهوم العامي في ان الزمان الاول قد تحول ، وان المذهب الواقعي خير من المذهب الرومانتيكي لانه جاء بعده ، وان المذاهب السريالية والرمزية والبرناسية وغيرها جاءت بعد الرومانتيكية والواقعية فهي خير منهما ، فان من حق القائلين بذلك ان يضيفوا : ان الادب في العصر العباسي خير منه في العصر الاموي ، وانه في عصر الانحطاط أفضل منه في العصرين السابقين لانه جاء بعدهما » (٣) .

وقد يتساءل المرء : كيف ، اذن ، نحكم على الوضع الثقافي ان كان متقدما أو لا ؟ والاجابة بسيطة هي اننا لا نحكم على الشيء الا من الشيء نفسه ، ندرسه أولا ثم نحكم عليه . وليس ثمة قانون يحتم سير التطور حسب خطوات معينة محددة .

الا ان اهم ما يميز المفهوم العامي للتطور عن نظريه التطور الاجتماعي هو قضية « التفاوت » . لان التطور الاجتماعي تطور متفاوت. فحتى حين يحدث « التطور » عند مجتمع من المجتمعات ، فانه لا يعني التقدم في كل شيء ، بل يعني ان التقدم في بعض الامور يتبعه تأخر في بعض الامور أيضا من جهة ، وان التقدم لا يكون بالدرجة نفسها في كافة النواحي من جهة ثانية. ويمكنني ان اقدم المثال الواضح التالي :

لقد كانت الوسائل التجارية فيما مضى بدائية ، وكانت وسائط النقل تقوم على البغال والعربات والحمير، وكان التجار يتصفون على الغالب بالامانة والصدق والوفاء .

وارتقت الوسائل التجارية اليوم ، وغدت وسائل النقل هي الطائرات والقطارات والبواخر والسيارات ، وانتشر الكذب والتدليس والغش وما الى ذلك . ولولا هذه المساوىء لما كان التطور الاجتماعي تطورا متفاوتا .

ويقول تايلور : « ان التقدم الذي يحرزه احد العناصر الثقافية في مجتمع معين ، كثيرا ما يكون على حساب العناصر الاخرى ، أو على حساب تلك الثقافة كلها » (٤) .

اما المفهوم العامي للتطور فيتصور ان التطور كلي، ولذلك فانه يصف ظاهرة بالرقي تبعا لحدوثها مع ظاهرة أخرى راقية في زمن واحد .

فيمتدح قصيدة سخيفة ، او حركة ادبية ، لا لشيء فيها ، وانما لمجرد ظهورها في عصر الذرة واكتشاف الفضاء . وقد لا تكون هذه القصيدة أو تلك الحركة الادبية ، الا كتلك المساوىء التي رافقت التقدم التجاري . وقد يكون الامر على العكس ، فيذم عملا لانه ظهر في أحوال اجتماعية أو اقتصادية غير حسنة ، وقد نبه الى ذلك ديفد ديتشس فقال : « اذا كنا نؤمن بأن كل قيمة في السبب تنتقل دون تغيير الى النتيجة ، وان كل عمل ادبي ناشيء من ظروف اجتماعية لا نرتضيها لا بد أن يكون شيئا لا نرتضيه أيضا ، فان لدينا نظرة بسيطة الى الحياة ومشكلاتها » (٥) .

وعلى عكس المفهوم العامي للتطور يوضح لنا الناقد الماركسي جورج لوكاتش في كتابه « منعطف المصير » كيف صاحب الازدهار الاقتصادي في الاتحاد السوفياتي ركود الادب ، منطلقا في كتابه من مبدأ التطور المتفاوت الذي آمن به ماركس وانجلز . يقول لوكاتش : « فمن جهة أولى يحدث الازدهار الواسع في الاقتصاد الاشتراكي ، والانتشار السريع للديمقراطية البروليتارية وظهور عدة شخصيات قوية حركية من قلب الجماهير ونموّ المنزع الانساني البروليتاري في ممارسة العمال اليومية وممارسة رؤسائهم ، كل ذلك يحدث تأثيرا مهما وثوريا في شعور خيرة المفكرين في العالم الرأسمالي . بيد اننا نرى من جهة أخرى ، ان أدبنا السوفييتي لم يجاوز بعد تقاليد البورجوازية المنحطة التي تعارض تطوره » (٦) .

ومن هنا تتضح لنا خطورة المفهوم العامي للتطور حين يدخل ميدان النقد الادبي فيحول النقد الاجتماعي للادب ، وهو وصفي تفسيري ، الى نقد قيمي .

وكذلك فان نظرية التطور الاجتماعي تستند فيما تستند الى مبدأ التكيف مع البيئة ، وفي ذلك يقول جوليان ستيوارد : « ان التكيف مع البيئة عامل هام في التطور الاجتماعي » (٧) ، على حين ان المفهوم العامي للتطور لا يأخذ في حسبانه البتة هذا العامل في التطور، ولا يأخذ حتى امكانية تكيف الشيء مع البيئة .

وهو يتغافل عن أمر هام هو العامل الداخلي في تطور شعب من الشعوب ، لان النظرة العامية تتخيل ان تطور ثقافة شعب ما ، انما هو بمطابقة ثقافته لثقافة شعب متقدم عليه ، على حين تنظر الابحاث التطورية الى نشأة الثقافة نظرة مختلفة ، فلكل ثقافة تاريخ خاص بها نشأ نتيجة التطورات الداخلية التي حدثت في تلك الثقافة وحدها ، وكذلك نتيجة للتأثيرات الغريبة الطارئة التي تتعرض لها هذه الثقافة من الخارج . أما المفهوم العامي فيحاول فرض ثقافة خارجية على المجتمع ، وهو ولا شك ، عمل مناف للتطور .

وثمة نقطة أكثر أهمية من سابقتها، وهي ان التطور يشتمل فيما يشتمل على الانتقال من « المتجانس » الى « المتغاير » . فظهور الاتجاهات المختلفة في الادب بعد الاتجاه الواحد والنزعة السائدة ، دليل من دلائل التطور. ومن هذا يبدو لنا كم هي بعيدة عن روح التطور تلك النزعة السكولاستية التي تظهر في كتابات أدونيس داعية الى المذهب الواحد ، شاتمة لاعنة كل من ليس من مذهبها .

وان ما يجب أن يدركه الكاتب الناشيء هو ان ذاته هي اهم ما ينبغي أن يكتشفه في قراءاته العديدة ، وانه ليس ثمة ما يحطم طموحه الادبي قدر اتباعه شكلا ادبيا لا يتفق مع مواهبه الخاصة .

واذا كنا نرثي لحال التطورية الاجتماعية كيف ابتذلت واستحالت مفهوما عاميا مغايرا للنظرية ، فاننا نذكر ان الابتذال قد اعتدى على بعض النظريات غيرها ،

فقد ابتذلت الفرويدية ، كما ابتذلت نظرية آدلر في « القصور والتعويض » ، واليوم يميز الماركسيون المعاصرون بين نوعين من الماركسية هما : الماركسية العلمية والماركسية المبتذلة .

ويبدو لي ان كثيرا مما يدعى نقدا عندنا انما هو ثمرة الاتحاد بين الماركسية المبتذلة والمفهوم العامي للتطور.

وعلى أية حال ، فلن يستفيد الناقد الادبي كثيرا او قليلا من عودته ـ في ميدان النقد ـ الى منابع النظرية التطورية بدلا من المفهوم العامي للتطور .

لان مجاله هو غير هذا المجال ، وكل ما يكتبه في النقد من هذا المنطلق انما هو خروج عن الموضوع . وانها لنظرية قد يستفيد منها عالم الاجتماع والثقافة والانثروبولوجي ، وقد يستفيد منها المؤرخ كذلك الى حد بسيط .

ولكن المؤرخ اذا أراد أن يدرس النشوء والارتقاء في ادب من الآداب لا بد أن يستعين بخبرة الناقد ونتائج اعماله التقويمية ، والا كيف سيفسر ارتقاء الادب وتدهوره من دون أحكام نقدية تهديه في عمله ! أما أن يتحول الناقد الى مؤرخ يسير بهدي المفهوم العامي للتطور ، متخذا من « التقويم بمقتضى التقويم » شعاره وديدنه فتلك مأساة النقد عندنا .

وليست مأساة النقد في ان الناقد يسقط على الادب مفهوما قديما عليه أن يستبدله بمفهوم جديد ، لان لكل عمل ادبي نظامه الشكلي الخاص، وكيانه المميز ، على الناقد أن يكتشفه وينقده ، وهو يستعيد على عمله هذا بكل ثقافته وقراءاته والمنهج النقدي الملائم للنص المنقود .

وبينما ينزع النقد الحديث الى دراسة القصيدة بدلا من الشاعر ، والعمل الواحد بدلا من الاعمال الكثيرة، نجد الدعوة تتجه عندنا الى دراسة كل الثقافة العربية وتقييمها ، ببضعة أسطر في صحيفة من الصحف اليومية .

وكل هذا لن يسهم الا في تأخر العمل النقدي ، واشغاله عن وظيفته ، ووظيفة الناقد ، كما سبق ان كتبت مرة ، هي : « أن ينتقل من العموم الى الخصوص، وأن ينفذ الى صميم التجربة الادبية فيعيشها ويعبر عنها تعبير الفنان المتذوق واسع المعرفة » ، والناقد هو ذلك الذي تثقف انفعاله كما تثقف فكره ، وهو المبدع في اكتشافه وعطائه .

ولكن ... أين هو ذلك الناقد المثقف الفكر والانفعال ؟ انه ، وكما قال لورنس، «نادر كالعنقاء» (٨) .

* * *

## هوامش


( ١ ) مجلة « المعرفة » ـ دمشق ـ أيلول ( سبتمبر ) ١٩٧٤ .

( ٢ ) الدكتور محمود فهمي زيدان : « الاستقراء والمنهج العلمي » ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

( ٣ ) « المعرفة » ـ أيلول ( سبتمبر ) ١٩٧٤ .

( ٤ ) Tylor , E.B. : Primitive culture , Vol . I PP 35 - 41

( ٥ ) David Daiches : Critical Approches To Literature , Prentic - Hall , Inc 1965 - Ch 18

( ٦ ) « جورج لوكاتش » ـ تاليف هنري ارافون ـ ترجمة د. عادل عوا ـ دمشق ١٩٧٠ ـ ص ٨٧ .

( ٧ ) Steward , J .H. : Evolution and Social Types , in Sol Tax ( ed ) op . cit , pp . 40 - 42 .

( ٨ ) H . Coombes , Literature and Criticim , P . 8



صدر حديثا

مكاسيات الصديق توما

وأغاني زهران

للشاعر

الياس لحود